(١٧)

أعظم الفتح..!!

أقام رسول الله ﷺ ، بالحديبية تسعة عشر يوماً وعشرين ليلة ، وكانت مدة بقائه خارج المدينة شهراً ونصف شهر. فلما انصرف من الحديبية نَفِدَ زاد القوم ، وهم في سفرهم إلى المدينة ، فشكوا إلى النبي ﷺ ، وكان معهم إبل وخيل فقالوا: ننحرها ، ونَدَّهن بشحومها ، ونتخذ من جلودها أحذية ، ونأكل لحومها ، فأذن لهم الرسول بذلك ؛ وأُخْبِرَ عمر بما قال الناس وبإذن النبي ﷺ ، فجاء إليه مُسْرِعاً فقال : « يا رسول الله لا تفعل ، فإن يكن في الناس بقية ظهر يكن أمثل (يعني أفضل لنا أن نُبْقي على الإبل والخيل) ، كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً (أي مشاة)؟ ! ولكن إن رأيت أن تدعو الناس فيأتوا ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو فيها بالبركة فإن الله سيبلغنا بدعوتك». ففعل ذلك رسول الله ، فأكلوا مما كان بقي معهم من زادٍ قليل حتى شبعوا ، وفَضَل منه مثل الذي أتوا به ! فضحك رسول الله ﷺ ، حتى بدت

obeikandl.com

نواجذه ، وقال : «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، والله لا يلقى الله عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار»[1].

ثم ارتحل القوم فما لبثوا أن أتاهم مطر غزير ، وهم في الصيف ، فَنَزلَ رسول الله ﷺ ، ونزلوا ، فشربوا من ماء السماء حتى رووا .

فتأمل هاتين الآيتين يُحدِثُهما الله ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه في رحلة العودة إتماماً للنعمة ورحمة بالناس . لا ريب في أن قلوب المؤمنين كانت أكثر القلوب اطمئنانًا إلى صدق رسول الله ﷺ . لكن بعض الناس تأسره المعجزة المادية ، بما تخرق من العادة ، وبها تثبت من صلة لا مراء فيها بين السماء والأرض . ورؤية هؤلاء للمعجزات المادية تثبت إيمانهم وتقوي يقينهم وتجعل التصديق الراسخ لرسول الله ﷺ ثمرة للمعاينة بقدر ما هو ثمرة لاستبصار العقل والخضوع لحجته .

وتأمل قبول رسول الله ﷺ ، نصيحة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بعد الذي كان منه وقت إبرام الصلح مع المشركين ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبيه، وقال عنه حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، (حديث رقم ٤٢٨٧)، من طبعة دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢.

obeikandl.com

تَعْلَمْ صدق عمر وإخلاصه ، ويقين النبي ﷺ بذلك ؛ فهو لم يؤنبه ، ولم يعاتبه، ولم يستغرب منه الكلام ، عندما جاء ناصحاً ، ولكنه - ﷺ - عقل عنه ، وقبل منه وكأن شيئاً مما وقع منه عند التفاوض على الصلح لم يكن . وهذا الموقف النبوي مَعْلَمٌ هادٍ للمربين والآباء والأمهات والمسؤولين والحكام جميعاً: أن الخطأ ليس مؤبداً على أحد ، وأن الحق يُقْبل ممن جاء به ، وأن من أخلص القول والعمل - ولو خالف رأيه رأينا - فأمره كله محمول على الخير .

* * *

لما استأنف المسلمون سيرهم ، نحو المدينة المنورة ، قال رجل من أصحاب النبي ﷺ : « ما هذا بفتح ! لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا ؛ وردَّ رسول الله ﷺ ، رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه »[1] (!) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « بئس الكلام ! بل هو أعظم الفتح ، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح (الراح جمع راحة وهي كفُّ اليد ، والمعني : بغير قتال) عن بلادهم . ويسألوكم القضية

(١) أي جاءا إليه من مكة مسلمين، يعني أبا جندل بن سهيل بن عمرو؛ وأبا بصير بن أسيد الثقفي، حليف بني زهرة؛ فتح الباري، جـ ٥ ص٣٤٨-٣٤٩.

(أي الصلح) ، ويرغبون إليكم في الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا (أي من الثبات والاجتماع على النبي والطاعة له) وأظفركم الله تعالى ، وردكم سالمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح ! أنسيتُم يوم أحد ؟ ؟ ! إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ ! أَنَسِيتُم يوم الأحزاب ؟ ؟ ! إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟ ! فقال المسلمون : « صدق الله ورسوله ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأَنْتَ أعلم بالله وبأمره منا » ! ![1]

* * *

ثم لم يمض إلا قليل حتى نزل جبريل على النبي ﷺ ، بسورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح : ١-٢) .

وبلغ الناس نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا إليه فقرأ عليهم أول السورة ، فقال رجل : (قيل إنه عمر بن

(١) تفسير القرطبي، جـ ١٦ ص ٢٦٠؛ والصالحي، السابق، ص ٩٦ وهو ينسبه إلى البيهقي من رواية عروة.

obeikandi.com

الخطاب) «أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟» قال: «إي والذي نفسي بيده إنه فتح»[1]! وقال رجال من المسلمين: «يا رسول الله هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعلُ بنا[2]؟» فنزل عليه قول الله تعالى ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾
(الفتح:٥)

وكان جبريل قد هنأ رسول الله ﷺ، بالبشارة الربانية في مطلع سورة الفتح، ولذلك هنأه المسلمون بها؛ وكان النبي ﷺ، يقول: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»[3] أو «هي أحب إليَّ مما على الأرض»[4].

* * *

(١) رواه أحمد في المسند عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري، رقم ١٥٥٤٩؛ وذكره الصالحي، السابق، ص ٩٧، ورواية أن القائل هو عمر بن الخطاب في: النويري، نهاية الأرب، ط دار الكتب المصرية جـ ١٧ ص ٢٣٥ .

(٢) القرطبي، جـ ١٦ ص ٢٦٢؛ والحديث في سنن الترمذي عن أنس برقم ٣٢٦٣ وقال فيه الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه، رقم ٤١٧٧ و٥٠١٢.

(٤) رواه الترمذي عن أنس بن مالك، رقم ٣٢٦٣.

كانت الحديبية ـ والصلح الذي تم فيها ـ مبدأ الفتح للإسلام والمسلمين . فقد ترتب على هذا الصلح أن أمن الناس ـ المسلمون والمشركون جميعاً ـ وتمكن من أراد الدخول في الإسلام ـ وكان يخشى سطوة قومه ـ أن يُظهر دينه، وأن يهاجر إلى المدينة ، بل فعل ذلك بعض رؤوس قريش نفسها كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما . ثم توالت الأسباب حتى فتحت مكة نفسها ودانت للإسلام أرض العرب كلها ؛ فكان ظاهر الصلح أن المسلمين ظُلِموا وهزموا ، وكان باطنه أنهم انتصروا وعزّوا ! !

* * *

obeikandl.com